المحاضرة الثامنة: الشكلانيون وتصورهم للأنواع الأدبية: توماشوفسكي، آيخنباوم، شلوفسكي..

أولًا: مدخل عام إلى الشكلانية الروسية

تُعدّ الشكلانية الروسية من أهم المدارس النقدية التي ظهرت في بدايات القرن العشرين، وخصوصًا بين عامي 1915 و1930، وقد مثّلت ثورة على المناهج السابقة التي كانت تفسّر الأدب تفسيرًا نفسيًا أو اجتماعيًا أو أخلاقيًا، ولقد كان الشكلانيون يسعون إلى جعل الأدب علمًا له منهج خاص وموضوع محدد، يتمثل في الأدبية أو ما يجعل من النص نصًا أدبيًا.

من أبرز روّاد هذه المدرسة:

- فيكتور شكلوفسكي(Viktor Shklovsky)
- رومان ياكوبسون(Roman Jakobson)
- بوريس إيخنباوم(Boris Eikhenbaum)
- يوري تينيانوف(Yuri Tynianov)
- ليف ياكوبنسكي(Lev Jakubinsky)

كانت هذه المجموعة مرتبطة بحلقتين فكريتين:

1. حلقة موسكو اللغوية
2. جمعية دراسة اللغة الشعرية (OPOYAZ) في بطرسبورغ

وقد تبلورت أفكارهم في ظل التحولات الاجتماعية والثقافية التي رافقت الثورة الروسية، مما جعلهم يبحثون عن "علم للأدب" منفصل عن السياسة والإيديولوجيا.

ثانيًا: مفهوم الشكل عند الشكلانيين

ركز الشكلانيون على ما أسموه الشكل الفني(Form) ، لا بمعناه السطحي المتعلق بالزخرفة أو القالب، بل باعتباره البنية الداخلية التي تنظّم النص الأدبي وتمنحه فرادته، فـ"الشكل" عندهم هو ما يجعل اللغة اليومية تتحوّل إلى لغة أدبية، أي إلى "لغة متغربة" أو "منحرفة" عن المألوف.، يقول شكلوفسكي في مقاله الشهير "الفن بوصفه حيلة" :(Art as Technique) "إن وظيفة الفن هي جعل الأشياء مألوفة بطريقة غير مألوفة.، أي أن الفن يحرّر اللغة من آليتها ويعيد إلينا إحساسنا بالعالم من خلال "الانزياح" أو "التغريب.(ostranenie) "

ثالثًا: نحو تصور شكلاني للأنواع الأدبية

.1الأدب بوصفه نسقًا من الأشكال

في تصورهم، لا يمكن فهم الأدب إلا باعتباره نظامًا ديناميكيًا من الأشكال يتغير باستمرار، فالأنواع الأدبية (الشعر، القصة، المسرحية...) ليست ثابتة أو محددة بجوهر معين، بل هي أنظمة بنائية متحركة تتطور تاريخيًا وفق علاقات داخلية بين الشكل والمضمون.

2تينيانوف والتاريخ الأدبي

يعد يوري تينيانوف من أبرز من طوّر هذا الفهم الديناميكي. في مقاله "حول التطور الأدبي" (1927)، يرى أن: الأنواع الأدبية تتغير بوصفها أنظمة وظيفية داخل النسق الأدبي العام". أي أن كل نوع أدبي يعيش ويتطور داخل منظومة من العلاقات مع الأنواع الأخرى، ومع الأشكال السائدة أو المنقرضة.

وهكذا تصبح العلاقة بين الأنواع علاقة جدلية: نوع يتطور على حساب آخر، أو يندمج معه ليولد نوعًا جديدًا.

رابعًا: الشكلانيون والتمييز بين الأنواع

.1الأساس اللغوي للأنواع: كان ياكوبسون أول من حاول ربط الأنواع الأدبية بالوظائف اللغوية، فالشعر، مثلًا، يتميّز بسيطرة الوظيفة الجمالية على اللغة؛ أي أن التركيز يكون على الرسالة ذاتها أكثر من مضمونها، أما النثر أو السرد، فيُعرَّف من خلال اختلاف توزيع الوظائف اللغوية (المرجعية، التعبيرية، الانفعالية..).وهكذا يمكن القول إن النوع الأدبي يُعرَّف عبر طبيعة تنظيم اللغة ووظيفتها المهيمنة.

.2الشكل كآلية تنظيم: يرى الشكلانيون أن الأنواع الأدبية تتحدد بطرائق تنظيم المادة اللغوية والسردية، لا بالمضامين أو القيم الأخلاقية، فالقصة، مثلاً، تختلف عن الرواية أو الأسطورة بسبب طريقة توزيع الأحداث وزمن الحكاية، لا بسبب موضوعها.يقول إيخنباوم: "إن ما يهمنا في دراسة الأدب ليس ما يقوله النص، بل كيف يقوله.، وبالتالي فكل نوع أدبي يتميّز بآليات تنظيمه الخاصة التي تمنحه طابعه الفني.

خامسًا: التطور والانتقال بين الأنواع

يرى الشكلانيون أن تطور الأنواع لا يتم عن طريق التقدم الخطي أو الوراثة الشكلية، بل عبر الصراع بين الأشكال القديمة والجديدة، فكلما فقد نوع أدبي قدرته على "التغريب" و"الإدهاش"، يظهر نوع جديد يعيد إحياء الأدبية من خلال شكل مبتكر.مثلاً:

عندما تفقد القصيدة التقليدية طاقتها الفنية، قد يظهر الشعر الحر أو قصيدة النثر كوسيلة لاستعادة "الأدبية"،

وعندما يُستهلك الشكل الروائي التقليدي، قد تنشأ الرواية الجديدة أو الرواية البوليفونية كما عند باختين (الذي تأثر بهم).

سادسًا: أثر الشكلانيين في نظرية الأنواع اللاحقة

أثّرت الشكلانية الروسية بعمق في الفكر النقدي الأوروبي والعالمي، خاصة في:

البنيوية الفرنسية (رولان بارت، تودوروف، جيرار جينيت.(

السيميائيات الأدبية.

نظرية التلقي والتناص.

وقد اعتمد تودوروف مثلاً على أفكارهم حين وضع تصنيفه الشهير للأنواع السردية، إذ استلهم من تينيانوف فكرة أن الأنواع أنظمة تتطور تاريخيًا داخل نسق الأدب العام.

سابعًا: خلاصة تصوّر الشكلانيين للأنواع الأدبية

البعد	عند الشكلانيين
ماهية النوع الأدبي	بنية شكلية ولغوية تتحدد بطريقة تنظيم المادة الفنية
تطوره	عبر صراع الأشكال داخل النسق الأدبي
غايته	تحقيق "الأدبية" عبر التغريب والانزياح
طبيعته	ديناميكية متغيرة، لا جوهر ثابت
منهج دراسته	تحليل العلاقات البنيوية داخل النصوص وفيما بينها

ثامنًا: تقييم نقدي

رغم الإسهامات الجليلة للشكلانيين في تطوير دراسة الأدب، إلا أن منهجهم تعرّض للانتقاد بسبب إغفالهم للسياق الاجتماعي والتاريخي في تفسير الظاهرة الأدبية، لكن مع ذلك، فقد كانت أفكارهم الأساس الذي قامت عليه الدراسات الحديثة للأجناس الأدبية، لأنهم نقلوا البحث من سؤال: ما الذي يقوله الأدب؟"إلى سؤال أكثر دقة:كيف يقول الأدب ما يقوله؟"

(ميخائيل باختين، خطاب الرواية (نقدهم وطور تصوّرهم).

لقد مثّل الشكلانيون الروس الخطوة التأسيسية في جعل دراسة الأدب علماً قائماً على تحليل الشكل والبنية. غير أن تصورهم للأنواع الأدبية، على الرغم من طابعه العلمي والبنيوي، بقي منغلقاً على النص، إذ ركّزوا على النظام الداخلي للأشكال دون الالتفات الكافي إلى البعد الاجتماعي أو الخطابي الذي يحيط بها.

هنا جاء ميخائيل باختين ليكمل ما بدأه الشكلانيون، في إطار رؤية أكثر انفتاحاً وحوارية. فقد تأثر بأعمالهم – خاصة تينيانوف وياكوبسون – لكنه تجاوزهم حين أكّد أن الأنواع الأدبية ليست مجرد قوالب شكلية، بل هي أشكال فكرية وخطابية تعبّر عن وعي الجماعة التاريخي.

يرى باختين أن كل نوع أدبي يتشكّل في سياق اجتماعي محدد، ويعكس صوتاً أو موقفاً ضمن حوار الثقافات والخطابات. ومن هنا طرح مفهومه الشهير عن "الحوارية (Dialogism) "و**"تعدد الأصوات " **(Polyphony)في الرواية، مبيناً أن تطور الأنواع ليس فقط نتيجة صراع داخلي للأشكال كما رأى الشكلانيون، بل أيضًا نتيجة تفاعلها مع الأيديولوجيا واللغة الاجتماعية المتعددة.

وهكذا يمكن القول إن الشكلانيين منحوا دراسة الأنواع أساسها البنيوي الصارم، بينما أعاد باختين إليها روحها التاريخية والاجتماعية. فانتقل البحث من الأدبية بوصفها شكلاً خالصاً إلى الأدبية بوصفها حواراً بين الأشكال والخطابات.

إن هذا التفاعل بين الشكلانية والباختينية يبيّن كيف أن نظرية الأنواع الأدبية تطورت من دراسة الشكل إلى دراسة الخطاب، ومن البنية المغلقة إلى النسق المفتوح الذي يجمع بين اللغة، والتاريخ، والوعي الثقافي.

أهم المراجع المعتمدة:

فيكتور شكلوفسكي، الفن كحيلة، 1917.

رومان ياكوبسون، اللسانيات والشعرية.

يوري تينيانوف، حول التطور الأدبي، 1927.

بوريس إيخنباوم، نظرية المنهج الشكلي.

تزفيتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، (تأثر بالشكلانيين